

# الموت

## عناصر الموضوع

٢٩٢ مفهوم الموت في القرآن

٢٩٣ الموت في الاستعمال القرآني

٢٩٤ الألفاظ ذات الصلة

٢٩٦ الأسلوب القرآني في عرض الموت

٣٠١ الناس والموت

٣١٠ الموت والأخرة

## مفهوم الموت في القرآن

أولاً: المعنى اللغوي:

«الميم والواو والتاء أصل صحيح، يدل على ذهاب القوة من الشيء، منه الموت: خلاف الحياة»<sup>(١)</sup>.

والموت: ضد الحياة، مات يموت ويمات أيضاً فهو ميتٌ، وميتٌ مشدداً ومخففاً، وقومٌ موتى، وأمواتٌ، وميتون، مشدداً ومخففاً، ويستوي فيه المذكر والمؤنث<sup>(٢)</sup>.  
والميت الذي مات، والميت والماتت: الذي لم يموت بعد، يقال: لمن لم يموت إنه مائتٌ عن قليل، وميتٌ، ولا يقولون لمن مات: هذا مائتٌ، قيل: وهذا خطأ، وإنما ميتٌ يصلح لما قد مات، ولما سيموت<sup>(٣)</sup>.

ثانياً: المعنى الاصطلاحي:

تعددت التعريفات للفظ الموت، وسنوردها إن شاء الله على النحو الآتي:  
الموت: صفة وجودية خلقت ضدًا للحياة<sup>(٤)</sup>.  
وقيل الموت: «انقطاع تعلق الروح بالبدن ومفارقته وحيلولة بينهما، وتبدل حال، وانتقال من دار إلى دار»<sup>(٥)</sup>.  
وقيل الموت: مفارقة الروح للجسد<sup>(٦)</sup>.  
وقيل الموت: «حال خفاء وغيب، يضاف إلى ظاهر عالم يتأخر عنه، أو يتقدمه، تفقد فيه خواص ذلك الظهور»<sup>(٧)</sup>.  
لا يخرج معنى الموت اصطلاحاً عن المعنى اللغوي، كلاهما يدلان على خلاف الحياة.

(١) مقاييس اللغة، ابن فارس ٥/ ٢٨٣.

(٢) انظر: مختار الصحاح، الرازي ١/ ٣٠١.

(٣) انظر: لسان العرب، ابن منظور ٢/ ٩١، تاج العروس، الزبيدي ٥/ ١٠٠.

(٤) انظر: التعريفات، الجرجاني ص ٢٣٥.

(٥) التذكرة بأحوال الموتى وأمور الآخرة، القرطبي ص ١١٢.

(٦) انظر: المجموع، النووي ٥/ ١٠٥.

(٧) التوقيف على مهمات التعاريف، المناوي ص ٣١٨.

## الموت في الاستعمال القرآني

وردت مادة (موت) في القرآن الكريم (١٦٥) مرة<sup>(١)</sup>.  
والصيغ التي وردت هي:

| الصيغة        | عدد<br>المرات | المثال  |
|---------------|---------------|---|
| الفعل الماضي  | ٢٤            | ﴿وَلَمَّا مَتَّوْا أَوْ قُتِلْتُمْ﴾ [آل عمران: ١٥٨]                   |
| فعل المضارع   | ٣٤            | ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾ [لقمان: ٣٤]             |
| فعل الأمر     | ٢             | ﴿فَقَالَ لَهُمْ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ﴾ [البقرة: ٢٤٣]      |
| المصدر        | ٥٠            | ﴿حَقَّ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ﴾ [المؤمنون: ٩٩]               |
| المصدر الميمي | ٣             | ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي﴾ [الأنعام: ١٦٢] |
| اسم المره     | ٣             | ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا مَوْتَتُنَا الْأُولَى﴾ [الدخان: ٣٥]                 |
| الصفة المشبهة | ٤٩            | ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ﴾ [الزمر: ٣٠]                  |

وجاء الموت في القرآن على أربعة وجوه<sup>(٢)</sup>:

الأول: الموت نفسه: ومنه قوله تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾ [آل عمران: ١٨٥].  
الثاني: النطفة: ومنه قوله تعالى: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ﴾ [البقرة: ٢٨]. يعني: كنتم نطفًا في أصلاب الآباء فأحياكم بالخلق والإيجاد، أو كنتم نطفًا في الأرحام فأحياكم فيها.

الثالث: الضلال: ومنه قوله تعالى: ﴿أَوْ مَن كَانَ مَيِّتًا﴾ [الأنعام: ١٢٢] يعني: ضالًا فهديناه.  
الرابع: الجذب وقلة النبات: ومنه قوله تعالى: ﴿وَأَيُّةٌ لَهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا﴾ [يس: ٣٣]. يعني: الأرض الجدباء التي ليس عليها نبات أحييناها بالماء والنبات.

(١) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي، ص ٦٧٨-٦٨٠، المعجم المفهرس الشامل، عبد الله جلغوم، ص ١٢٩٢-١٢٩٦.  
(٢) انظر: الوجوه والنظائر، الدامغاني، ص ٤٢٠-٤٢١، نزهة الأعين النظائر، ابن الجوزي، ص ٥٦٩-٥٧١، عمدة الحفاظ، السمين الحلبي، ٤/١٢٢-١٢٥.

## الألفاظ ذات الصلة

## ١ الفناء:

الفناء لغةً:

الفناء والنون والحرف المعتل. هذا باب لا تنقاس كلمه، ولم يبين على قياس معلوم، قالوا: فني يفنى فناء، والله تعالى أفناه، والفنا مقصور، والجمع أفنية<sup>(١)</sup>.  
فنى الشئ فناء، وأفناه غيره. وتفانوا، أي: أفنى بعضهم بعضًا في الحرب<sup>(٢)</sup>.

الفناء اصطلاحًا:

سقوط الأوصاف المذمومة، كما أن البقاء وجود الأوصاف المحمودة<sup>(٣)</sup>.

الصلة بين الموت والفناء:

الموت: فيه رجعة مرة أخرى في الصغرى، ولا رجعة في الكبرى، الفناء: هو الانتهاء ولا رجعة فيها.

## ٢ القتل:

القتل لغةً:

«القاف والتاء واللام أصل صحيح يدل على إذلال وإماتة، مصدر قتله قتلاً»<sup>(٤)</sup>.  
القتل معروف. وقتله قتلاً وتقتلاً. وقتله قتلة سوء، بالكسر<sup>(٥)</sup>.

القتل اصطلاحًا:

إزالة الروح بفعل المتولي له<sup>(٦)</sup>.

الصلة بين الموت والقتل:

الموت: ينفي الحياة مع سلامة البنية، القتل: ينفي الحياة مع انتقاض البنية<sup>(٧)</sup>.

(١) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٤/٤٥٣.

(٢) الصحاح، الجوهري ٦/٢٤٥٧.

(٣) التوقيف على مهمات التعاريف، المناوي ص ٢٦٤.

(٤) مقاييس اللغة، ابن فارس ٥/٥٦.

(٥) الصحاح، الجوهري ٥/١٧٩٧.

(٦) انظر: التوقيف على مهمات التعاريف، المناوي ص ٢٦٨.

(٧) انظر: الفروق اللغوية، العسكري ص ١٠٤.

## الإعدام لغةً:

العين والبدال والميم أصل واحد يدل على فقدان الشيء وذهابه، من ذلك العدم، وعدم فلان الشيء إذا فقد، وأعدمه الله سبحانه وتعالى أي: أماته، جمعه على العدماء<sup>(١)</sup>، عدمت الشيء بالكسر، أعدمه عدماً، بالتحريك على غير قياس، أي: فقدته<sup>(٢)</sup>.

## الإعدام اصطلاحاً:

هي شق الإنسان، وقتله على فعل شنيع قام بارتكابه.

## الصلة بين الموت والإعدام:

الموت وقوعه على العباد من رب العباد، الإعدام: حصوله بيد الإنسان على المذنب بمشيئة الله.

(١) انظر: مقاييس اللغة، بن فارس ٤/٢٤٨.

(٢) انظر: الصحاح، الجوهري ٥/١٩٨٢.

## الأسلوب القرآني في عرض الموت

تنوعت أساليب القرآن في عرض حقائق الموت، وسوف نتناولها بالبيان فيما يأتي:

### أولاً: حقيقة الموت والحكمة منه:

إن كنه الموت وحقيقته متعذرة معرفتها، قال الغزالي رحمه الله: «لا يمكن كشف الغطاء عن كنه حقيقة الموت؛ إذ لا يعرف الموت من لا يعرف الحياة، ومعرفة الحياة متوقفة بمعرفة حقيقة الروح في نفسها، وإدراك ماهية ذاتها»<sup>(١)</sup>.

وقال سيد قطب رحمه الله: «إننا لا نعرف شيئاً عن حقيقة الحياة وحقيقة الموت حتى اللحظة الحاضرة، ولكننا ندرك مظاهرها في الأحياء والأموات، ونحن ملزمون أن نكل مصدر الحياة والموت إلى قوة ليست من جنس القوى التي نعرفها على الإطلاق، قوة الله»<sup>(٢)</sup>.

إن كل أمر قدره البارئ -جل وعلا- لا بد فيه من حكمة، ظهرت أم خفيت، والموت من أعظم ما قدره الله تعالى على خلقه، فقد جعله الله تعالى فتنة للانتقال من الدنيا إلى الآخرة.

قال تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ﴾ [الملك: ٢].

ولنما قدم الموت هنا لأنه المخلوق أولاً، أو لأن أقوى الناس داعياً إلى العمل من نصب موته بين عينيه<sup>(٣)</sup>.

قال ابن كثير رحمه الله: ومعنى الآية: أنه أوجد الخلائق من العدم؛ ليلوهم ويختبرهم أيهم أحسن عملاً؟ كما قال: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا﴾ [البقرة: ٢٨].

فسمى الحال الأول -وهو العدم- موتاً، وسمى هذه النشأة حياة. ولهذا قال: ﴿ثُمَّ يُمَيِّنُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ [البقرة: ٢٨].

وعند ابن أبي حاتم عن قتادة، قال في قوله تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ﴾: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول: (إن الله أذل بني آدم بالموت، وجعل الدنيا دار حياة ثم دار موت، وجعل الآخرة دار جزاء ثم دار بقاء)<sup>(٤)</sup>.

ونظراً لتعذر معرفة كنه الموت، فقد رتب أهل العلم الأحكام الشرعية المتعلقة به بظهور أماراته، قال ابن قدامة رحمه الله: «إذا اشتبه أمر الميت اعتبر بظهور أمارات الموت: من استرخاء رجليه وانفصال كفيه، وميل أنفه، وامتداد جلدة وجهه، وانخساف صدغيه»<sup>(٥)</sup>.

(٣) الكشاف، الزمخشري ٤/ ٥٧٥.

(٤) تفسير ابن أبي حاتم ١٠/ ٣٣٦٣.

(٥) المغني، ابن قدامة ٢/ ٣٠٧.

(١) إحياء علوم الدين، الغزالي ٤/ ٤٩٥.

(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب ١/ ٢٩٨.

ثانيًا: الموت مصير كل حي:

عمران: [١٤٤].

وكان من دعاء النبي عليه السلام: (أعوذ بعزتك الذي لا إله إلا أنت، الذي لا يموت، والجن والإنس يموتون)<sup>(٣)</sup>. فسبحان من تفرد بالبقاء، وكتب على عباده الفناء.

إن تمنى عدم ملاقة الموت لن يجعل الإنسان في حلٍ منه بل هو ملاقيه لا محالة<sup>(٤)</sup>.

قال الله: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٦﴾ وَلَا يَمْتَنُّوهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمْتْ أَيْدِيَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٧﴾ قُلْ إِنْ أَلْمَزْتُمْ آلِيَّ الَّذِي يَقُولُ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلْفِقِكُمْ ثُمَّ تَرُدُّونَ إِلَىٰ عَلَيْهِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنْفِقْكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الجمعة: ٦-٨].

ولا ينفع الهرب من الموت.

قال الله: ﴿قُلْ لَنْ يَنْفَعَكُمْ الْفِرَارُ إِنْ فَرَرْتُمْ مِنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذًا لَا تَمْنَعُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الأحزاب: ١٦].

ولن ينفع كذلك الالتجاء منه إلى بروج مشيدة: ﴿أَيِنَّمَا تَكُونُوا يُدْرِكْكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشِيدَةٍ﴾ [النساء: ٧٨].

والجمع هنا في كلمة (بروج) مقصود أي: لو كنتم جميعًا معتصمين ببرج، وهذا

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: (وهو العزيز الحكيم)، ٦ / ٢٦٨٨، رقم ٦٩٤٨.

(٤) أضواء البيان، الشقيطي ٨ / ١٢٠.

إن الموت هو مصير محتوم لكل مخلوق حي، أوجده الله سبحانه؛ لقوله تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ [العنكبوت: ٥٧].

وقوله تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ [الرحمن: ٢٦].

فهنا يخبر تعالى أن جميع أهل الأرض سيذهبون ويموتون، وكذلك أهل السموات، إلا من شاء الله، ولا يبقى أحد سوى وجهه الكريم، بل هو الحي الذي لا يموت أبدًا<sup>(١)</sup>.

ولو نجا من الموت أحد لنجا منه أكرم البرية عند ربها محمد صلى الله عليه وسلم، ولو خلد أحد لخلد سيد الخلق صلى الله عليه وسلم، لكن الله كتبه عليه فقال: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ﴾ [الزمر: ٣٠].

ثم وصى الله تعالى رسوله، فأخبره بأن هذه سنته في خلقه، فقال: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِشَرِّهِ مِنْ قَبْلِكَ الْخَلْدَ أَفَّا يَأْتِيَنَّ مِنْهُمْ الْخَالِدُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٤]<sup>(٢)</sup>.

وبعدها حذر المسلمين من النكوص على الأعقاب: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإَيْنَ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَىٰ عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾ [آل

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٧ / ٤٩٤.

(٢) القيامة الصغرى، عمر الأشقر ص ١٨.

الإيمان والطاعة<sup>(٤)</sup>.

ولذا فإن الإنسان يتمنى الرجوع إلى دنياه ليتوب ويرجع عما اقترفه من قبل، لكن الله تعالى بين أن التوبة والإنابة لا تنفع فقط بعد الموت، بل حتى قبل خروج الروح، ومالم يغرغر الإنسان.

قال الله: ﴿وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّىٰ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْإِيمَانَ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَٰئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [النساء: ١٨]<sup>(٥)</sup>. قال ابن كثير رحمه الله «فأما متى وقع الإياس من الحياة، وعاین الملك، وحشرجت الروح في الحلق، وضاق بها الصدر، وبلغت الحلقوم، وغرغرت النفس صاعدة في الغلاصم، فلا توبة متقبلة حينئذ، ولات حين مناص»<sup>(٦)</sup>.

رابعاً: الموت كتاب مؤقت:

إن الله تعالى كتب الموت، وجعل له وقتاً لا يتقدم ولا يتأخر.  
قال الله: ﴿وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [المنافقون: ١١].  
وقال: ﴿فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٤].

والمعنى: سيأتي وقت محدود ينزل فيه

البرج محاط بآخر وثالث ورابع، فلن يحميكم من الموت، وهذا يبين بجلاء قدرة الحق سبحانه في إنفاذ أمره بالموت<sup>(١)</sup>.

ثالثاً: ندم الناس عند الموت:

كل الناس - مؤمنهم وكافرهم - سيندمون عند الموت، أما المؤمن فندمه على تفریطه في ساعة لم يذكر الله فيها، ويندم كذلك لعدم إكثاره من العمل الصالح، وعدم الحصول على الدرجات العليا من الجنة؛ ولذا أقسم الله بالنفس اللوامة فقال: ﴿وَلَا أَقِيمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَامَةِ﴾ [القيامة: ٢].

قال مجاهد رحمه الله: «هي التي تلوم على ما فات، وتندم فتلوم نفسها على الشر لم عمله، وعلى الخير لم لم يستكثر منه»<sup>(٢)</sup>.  
وأقسم الحسن رحمه الله على أنها نفس المؤمن<sup>(٣)</sup>.

أما الكافر فندمه بسبب تفریطه في جنب الله.

قال الله: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ ﴿١١﴾ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [المؤمنون: ٩٩-١٠٠].

والمعنى: لعلي أستدرك ما ضيعت من

(٤) التفسير الميسر، مجمع الملك فهد ص ٣٤٨.

(٥) انظر: تفسير ابن أبي حاتم ٣/٩٠٠.

(٦) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/٢٣٨.

(١) تفسير الشعراوي ٤/٢٤٣٦.

(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٩/٩٣.

(٣) فتح القدير، الشوكاني ٥/٣٣٥.

[٣٨].

ومع أن الله تعالى أقت للموت، إلا إنه جعل هذا الأجل مجهولاً عن صاحبه؛ ليدفعه للعمل، والاستمرار على الطاعة، والانتباه والحذر من ساعة الأجل، فقال: ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾ [لقمان: ٣٤].

قال قتادة رحمه الله: «أشياء استأثر الله بهن، فلم يطلع عليهن ملكاً مقرباً، ولا نبياً مرسلًا ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾ فلا يدري أحد من الناس متى تقوم الساعة، في أي سنة أو في أي شهر، ﴿وَيُنزَلُ الْغَيْثُ﴾ فلا يعلم أحد متى ينزل الغيث، ليلاً أو نهاراً، ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ﴾ فلا يعلم أحد ما في الأرحام، أذكر أم أنثى، أحمر أو أسود، ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا﴾ أخير أم شر، ولا تدري يا ابن آدم متى تموت؟ ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾، ليس أحد من الناس يدري أين مضجعه من الأرض، أفي بحر أم بر؟<sup>(٤)</sup>.

خامساً: الموت بيد من بيده الحياة:

الله تعالى هو خالق الحياة والموت، وجعلهما بيده سبحانه ومن أسمائه: الحي. قال الله: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

(٤) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ٣٥٥.

عذابهم من الله أو يميتهم فيه<sup>(١)</sup>.

وذكر سبحانه أنه عجل الموت على خلق وأخره على آخرين، فمنهم المستأخر والمستعجل<sup>(٢)</sup>.

قال الله: ﴿مَنْ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ وَمَا تَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ﴾ [الواقعة: ٦٠].

وعند مسلم من حديث ابن مسعود: أن النبي صلى الله عليه وسلم أوصى أمنا أم حبيبة رضي الله عنها بعد أن دعت الله بأن يمتعها بزوجها وأبيها وأخيها، فقال: (قد سألت الله لأجال مضروبة، وأيام معدودة، وأرزاق مقسومة، لن يعجل شيئاً قبل حله، أو يؤخر شيئاً عن حله)<sup>(٣)</sup>.

وقد أخبر تعالى أن النفوس جميعها متعلقة بأجالها بإذن الله وقدره وقضائه، فمن حتم عليه بالقدر أن يموت مات ولو بغير سبب، ومن أراد بقاءه، فلو أتى من الأسباب بكل سبب، لم يضره ذلك قبل بلوغ أجله.

قال الله: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كَتَبْنَا مُوَجَلًّا﴾ [آل عمران: ١٤٥].

وقال الله: ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾ [الرعد: ١٠].

(١) فتح القدير، الشوكاني ٢/ ٢٠٢.

(٢) جامع البيان، الطبري ٢٣/ ١٣٧.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب القدر، باب بيان أن الأجال والأرزاق وغيرها لا تزيد ولا تنقص عما سبق به القدر، ٤/ ٢٠٥٠، رقم ٢٦٦٣.

نفسه؛ لأن ملك الموت لا يقدر أن يقبض روح أحد إلا بإذنه ومشيته تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَابًا مُّوجَّلاً﴾ [آل عمران: ١٤٥].

وأسنده لملك الموت؛ لأنه هو المأمور بقبض الأرواح، وأسنده للملائكة؛ لأن ملك الموت له أعوان من الملائكة تحت رئاسته، يفعلون بأمره وينزعون الروح إلى الحلقوم، فيأخذها ملك الموت<sup>(٣)</sup>.

وقيل جواباً عليه أيضاً: إن الله تعالى هو المتوفي بخلق الموت، وأمر الوسائط بنزع الروح، والملائكة المتوفون أعوان ملك الموت وهم يجذبون من الأظفار إلى الحلقوم، وملك الموت يتناول الروح من الحلقوم، فصحت بذلك الإضافات كلها<sup>(٤)</sup>.

والحي هو «الذي لم يزل موجوداً وبالحياء موصوفاً، لم تحدث له الحياة بعد موت، ولا يعترضه الموت بعد الحياة، وسائر الأحياء يعتورهم الموت والعدم»<sup>(١)</sup>، وإذا قيل في حق الله: هو حي، فالمعنى «لا يصح عليه الموت، وليس ذلك إلا لله عز وجل»<sup>(٢)</sup>.

والناظر في الآيات يجد أن الله أسند الموت وأخذ الروح إلى نفسه تارة فقال: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا﴾ [الزمر: ٤٢].

وأسنده مرة إلى الملائكة، فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّيْنَاهُمُ الْمَلَائِكَةُ﴾ [النساء: ٩٧]. وقال: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُمْ رَسُولُنَا يُتَوَفَّوْنَهُمْ﴾ [الأعراف: ٣٧].

وقال: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ [الأنفال: ٥٠].

وأسنده إلى ملك الموت، فقال: ﴿قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾ [السجدة: ١١].

فمن الذي يتوفى الأنفس حقيقة؟ وهل بين هذه الآيات تعارض؟

قال الشنقيطي رحمه الله: «والجواب عن هذا ظاهر: وهو أن إسناده التوفى إلى

(٣) دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب، الشنقيطي ص ١٨٤.

(٤) أنموذج جليل في أسئلة وأجوبة عن غرائب آي التنزيل، الرازي ص ٤٠٩.

(١) الأسماء والصفات، البيهقي ١/ ٦٣.

(٢) المفردات، الراغب الأصفهاني ص ٢٧٩.

[الفرقان: ٤٠].

فزاد تكذيبهم وعنادهم وقالوا: ﴿وَقَالُوا  
إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ [الأنعام:  
٢٩].

وقد سطرت الآيات الكريمة مشهدًا  
يصور منطق تلك العقلية التي نشأت على  
التكذيب بالبعث وظلم النفس والابتعاد عن  
الحق.

قال الله: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسَى خَلْقَهُ  
قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظْمَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا  
الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ  
﴿٧٩﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا  
فَإِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقَدُونَ ﴿٨٠﴾ أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ  
السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَدِيرٍ عَلَيَّ أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ  
بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ﴾ [يس: ٧٨-٨١].

روى ابن أبي حاتم بسنده عن ابن عباس  
رضي الله عنهما، قال: (جاء العاص بن  
واثل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم  
بعظم حائل، ففته بيده فقال: يا محمد أحيي  
الله هذا بعدما أرم؟ قال: (نعم يبعث الله  
هذا، ثم يميتك، ثم يحييك، ثم يدخلك نار  
جهنم)<sup>(١)</sup>.

وقال الله: ﴿وَيَقُولُ الْإِنْسَانُ أَإِذَا مَاتَ  
لَسَوْفَ أَخْرَجُ حَيًّا﴾ [مريم: ٦٦].

واختلف هنا في من المقصود بالإنسان؟  
(١) تفسير ابن أبي حاتم ١٠ / ٣٢٠٢.  
وصححه الوادعي، في الصحيح المسند من  
أسباب النزول ص ١٧٤.

## الناس والموت

من عجائب القرآن أنه ركز على قضايا  
خاصة في حياة الناس، وحتى في أشد  
الظروف مرارة وقساوة، سواء في صحة أو  
سقم، في مرض أو موت، أو حرب أو سلم،  
فردًا أو جماعة، غنيًا أو فقيرًا، فسبحان من  
أودع العلوم في كتابه: ﴿مَا قَرَأْنَا فِي الْكِتَابِ  
مِنْ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ٣٨].

يتحدث القرآن عما يعتقد ذلك الكافر  
عند حضور الموت، واعتقاد المؤمن  
كذلك، ويتحدث عن توبة الإنسان عند  
موته، وعن وصية الإنسان وهو على عتبة  
الموت، ويعطي مثالًا رائعًا رائعًا عن وصية  
يعقوب لأبنائه عند موته. وسيكون بحثنا  
- بإذن الله - عن هذه المسائل:

أولًا: اعتقاد الكافر أن الموت نهاية  
المطاف:

يعتقد المكذبون بالبعث أن الموت هو  
النهاية العظمى وهو آخر المطاف، ولا بعث  
بعث، حيث قالوا: ﴿أَوَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا  
تُرَابًا وَعِظْمًا أَوَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٨٢﴾ لَقَدْ وَعَدْنَا  
نَحْنُ وَمَنْ آوَاكَ هَذَا مِنْ قَبْلُ إِن هَذَا إِلَّا سَنطِيرٌ  
الْأُولَئِكَ﴾ [المؤمنون: ٨٢-٨٣].

ثم اعتقدوا أن لا حياة بعد ذلك ولا  
نشورًا.

قال الله: ﴿بَلْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ نُشُورًا﴾

هل هو عام، أم أنه قصد أحداً بعينه؟. فقيل: العاصم، وقيل: أبي بن خلف أو الوليد بن المغيرة<sup>(١)</sup>.

وأيا كان، فكل من كان على هذه الشاكلة فهو مقصود، والمعنى: يقول المنكر للبعث، المستبعد لوقوعه: كيف يعيدني الله حياً بعد الموت، وبعد ما كنت رميمًا؟<sup>(٢)</sup>.

ولذا فإن الكافر بعد أن يعاين ما بعد الموت، يأخذ بالدعاء والتضرع بالرجوع إلى الدنيا مرة أخرى؛ ليستأنف عمله ويشرع بالحسنى، ولكن هيهات ساعتئذ.

قال الله: ﴿حَقَّ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ ۗ (١١) لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِن وَرَائِهِم بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [المؤمنون: ٩٩-١٠٠].

وهو من كان يقول قبل: ﴿أَيُّدُّكُمْ أَنْتُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنْتُمْ تُرَابًا وَعِظْمًا أَنْتُمْ تُخْرَجُونَ ۗ (٣٥) هَيَّاتَ هَيَّاتَ لِمَا تُوْعَدُونَ ۗ (٣٦) إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ [المؤمنون: ٣٥-٣٧].

ثانياً: اعتقاد المؤمن أن الموت مرحلة:

وأما المؤمن، فإنه يعتقد بأن الموت ليس إلا طريقاً للدار الآخرة، وهو أول مراحلها؛ ولذا فقد أخبر الله تعالى أن مجيء الموت هو طريق لما بعده من نفخ الصور، ومجيء

الشهود، ورؤية ما لم تره من قبل، فقال: ﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ ۗ (١١) وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَلِكَ يَوْمَ الْوَعِيدِ ۗ (١٢) وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ ۗ (١٣) لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا فَكُنْفَمْنَا عَنْكَ غِطَاءً لَّكَ فَبَصَّرَكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ [ق: ١٩-٢٢].

إن المخاطب بهذه الآيات هو الإنسان<sup>(٣)</sup>، سواء كان مؤمناً أم كافراً، والمؤمن يقبله كعين يقين، فلا يشك بما جاء من عند الله.

ولما كانت نفرتة منه وهربه من وقوعه بحفظ الصحة ودواء الأداء في الغاية، كان كأنه لا ينفر إلا منه، فأشار إلى ذلك بتقديم الجار فقال: ﴿مِنْهُ تَحِيدُ﴾<sup>(٤)</sup>.

قال أبو السعود رحمه الله: «بعدما ذكر استبعادهم للبعث والجزاء وأزبح ذلك بتحقيق قدرته تعالى وعلمه، وبين أن جميع أعمالهم محفوظة مكتوبة عليهم، أتبع ذلك ببيان ما يلاقونه لا محالة من الموت والبعث، وما يتفرع عليه من الأحوال والأحوال، وقد عبر عن وقوع كل منها بصيغة الماضي إيداناً بتحقيقها وغاية اقترابها»<sup>(٥)</sup>.

وذكر سبحانه أن خروج الروح ما هي إلا مساق إليه، فليس خروجها نهاية الأمر، قال سبحانه: ﴿كَلَّا إِذَا بَلَغَتِ النَّرَاقِيَ ۗ (٦) وَقِيلَ مَنْ رَاقِيَ ۗ (٧)

(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣٩٩/٧.

(٤) نظم الدرر، البقاعي ٤٢٣/١٨.

(٥) إرشاد العقل السليم، أبو السعود ١٢٩/٨.

(١) فتح البيان، صديق خان ١٨٣/٨.

(٢) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٤٩٨.

أَصْحَابِ الْيَمِينِ ﴿٩١﴾ وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُكْفِرِينَ  
الضَّالِّينَ ﴿٩٢﴾ فَتَزِلُّ بَيْنَ جَمِيمٍ ﴿٩٣﴾ وَتَصْلِيَةُ جَمِيمٍ  
﴿٩٤﴾ إِنَّ هَذَا لَمَوْحٌ يَقِينٌ ﴿٩٥﴾ [الواقعة: ٨٣-٩٥].

وبناء على ما تبين، فإن من الألفاظ التي نهى عنها أهل العلم: قول بعض الناس: (دفن فلان في مثواه الأخير)!! لأنه من المعلوم أن الموت والقبور هما إلا مرحلة بين الدنيا والآخرة، فبعدهما يأتي البعث ثم الحشر، ثم العرض في يوم القيامة ثم إلى جنة أو نار: ﴿قَرِيبٌ فِي الْجَنَّةِ وَقَرِيبٌ فِي السَّعِيرِ﴾ [الشورى: ٧].

ولذا فلو أطلقها إنسان معتقداً ما ترمي إليه من المعنى الإلحادي الكفري المذكور؛ لكان كافراً مرتدّاً فيجب إنكار إطلاقها، وعدم استعمالها<sup>(٢)</sup>.

### ثالثاً: التوبة عند الموت:

التوبة: مأخوذة من (توب)، والتاء والواو والباء: أصل يدل على الرجوع<sup>(٣)</sup>. وتاب إلى الله تعالى من كذا وعن كذا: أناب ورجع عن المعصية إلى الطاعة<sup>(٤)</sup>. والتوبة النصوح: هي توثيق العزم على أن لا يعود<sup>(٥)</sup>.

(٢) المناهي اللفظية، بكر أبو زيد ٤٧٦.

(٣) مقاييس اللغة، ابن فارس ١/٣٥٧.

(٤) لسان العرب، ابن منظور ١/٢٣٣.

(٥) التوقيف على مهمات التعاريف، المناوي ص ٢١٣.

وَعَلَّ أَنْهَ الْفِرَاقُ ﴿٢٨﴾ وَالنَّفْسَ السَّاقُ السَّاقِ ﴿٢٩﴾ إِنْ رَيْكَ  
يَوْمَئِذٍ السَّاقُ ﴿٣٠﴾ [القيامة: ٢٦-٣٠].

قال السعدي رحمه الله: «يعظ تعالى عباده بذكر حال المحتضر عند السياق، وأنه إذا بلغت روحه التراقي، وهي العظام المكتنفة لشجرة النحر، فحيثئذ يشتد الكرب، ويطلب كل وسيلة وسبب يظن أن يحصل به الشفاء والراحة، ولهذا قال: ﴿رَقِيقٌ مِّنْ رَّاقٍ﴾ أي: من يرقيه؛ لأنهم انقطعت آمالهم من الأسباب العادية، فلم يبق إلا الأسباب الإلهية. ولكن قضاء الله إذا حتم فلا مرد له. ﴿وَعَلَّ أَنْهَ الْفِرَاقُ﴾ للدنيا. ﴿وَالنَّفْسَ السَّاقُ السَّاقِ﴾ أي: اجتمعت الشدائد والتفت، وعظم الأمر وصعب الكرب، وأريد أن تخرج الروح التي ألفت البدن ولم تزل معه، فتساق إلى الله تعالى، حتى يجازيها بأعمالها، ويقررها بفعالها<sup>(١)</sup>».

ثم إن الموت إما جسر يمد للمؤمن إلى الجنة، أو جسر يمد للكافر إلى جهنم والعياذ بالله.

قال تعالى: ﴿فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلُقُومَ ﴿٨٣﴾ وَأَنْتُمْ حِينِيذٍ نَّنظُرُونَ ﴿٨٤﴾ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلَكِنْ لَا تُبْصِرُونَ ﴿٨٥﴾ فَلَوْلَا إِنْ كُنْتُمْ عَيْرَ مَدِينَةٍ ﴿٨٦﴾ تَرْجِعُونَهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٨٧﴾ فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقْرَبِينَ ﴿٨٨﴾ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتْ نَعِيمٍ ﴿٨٩﴾ وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ أَصْحَابِ الْيَمِينِ ﴿٩٠﴾ فَسَلَطْنَاكَ مِنْ

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٩٠٠.

والتوبة هي ترك الذنب مخافة الله، واستشعار قبحة، وندم على المعصية من حيث هي معصية، والعزيمة على ألا يعود إليها إذا قدر عليها، وتدارك ما أمكنه أن يتدارك من الأعمال<sup>(١)</sup>. وحقيقتها ليست فقط ترك الذنب، بل لا بد فيها من التزام بأمر الله.

وقد أتت التوبة في القرآن على ثلاثة أوجه<sup>(٢)</sup>:

أولاً: بمعنى الندم: كقوله تعالى: ﴿فَتُوبُوا إِلَىٰ بَارِيكُمْ فَاقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ﴾ [البقرة: ٥٤].

ثانياً: بمعنى التجاوز: كقوله تعالى: ﴿لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَىٰ النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ﴾ [التوبة: ١١٧].

ثالثاً: بمعنى الرجوع عن الشيء: كقول موسى عليه السلام: ﴿بُئِيَٰتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٣].

وقد أمر الله عباده بالتوبة فقال: ﴿وَتُوبُوا إِلَىٰ اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهُ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [النور: ٣١].

وبشرهم بقبولها بقوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ﴾ [الشورى: ٢٥].

وفتح لهم باب الرجاء، بعفوه عنهم ومغفرته لهم، فقال: ﴿قُلْ يَبْعَادَىٰ الَّذِينَ

أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣].

ولذا كان واجباً على الخلق أن يبادروا بالتوبة إلى الله، بل وانفتحت الأمة على ذلك<sup>(٣)</sup>، فإن فعلوا فقد أوجب الله على نفسه قبولها منهم في وقتها، فقال: ﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَىٰ اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِمَهَلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُولَٰئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ١٧].

وحتى تكون توبة العبد مقبولة عند الله، لا بد وأن تكون في وقتها، ووقتها الذي قدره الله موسع، وهو من وقوع الذنب إلى ما قبل حضور الموت.

قال الله: ﴿وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّىٰ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي بُتِيتُ النَّارَ وَلَا الَّذِينَ يُمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَٰئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [النساء: ١٨].

يعني بذلك -جل ثناؤه-: وليست التوبة للذين يعملون السيئات من أهل الإصرار على معاصي الله حتى إذا حشرج أحدهم بنفسه، وعاین ملائكة ربه قد أقبلوا إليه لقبض روحه، ثم قال: وقد غلب على نفسه، وحيل بينه وبين فهمه، بشغله بكرب حشرجته وغرغرتة: ﴿إِنِّي بُتِيتُ النَّارَ﴾

(١) التوبة إلى الله، صالح السدلان ص ١٠.  
(٢) قاموس القرآن، الدامغاني ص ٩٠.

(٣) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٩٠/٥.

يقول: فليس لهذا عند الله توبة؛ لأنه قال ما قال في غير حال توبة<sup>(١)</sup>.

رابعاً: الوصية عند الموت:

الوصية في اللغة: أخذت هذه اللفظة من وصيت الشيء إذا أوصلته<sup>(٢)</sup>.

أما شرعاً فتعني: تملك مضاف إلى ما بعد الموت بطريقة التبرع<sup>(٣)</sup>.

والوصية مشروعة بالكتاب والسنة وإجماع الأمة:

أما بالكتاب فلورود الآيات الكثيرة التي دلت على مشروعيتها.

قال الله: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةَ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ١٨٠].

وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (ما حق امرئ مسلم له شيء يوصي فيه، يبيت ليلتين إلا ووصيته مكتوبة عنده). قال ابن عمر: ما مرت علي ليلة منذ سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ذلك إلا وعندني وصيتي<sup>(٤)</sup>.

وذكر هذا النبي صلى الله عليه وسلم حيث قال: (إن الله عز وجل ليقبل توبة العبد ما لم يغرغر)<sup>(٥)</sup>، وقوله: (ما لم يغرغر) أي: ما لم تبلغ روحه حلقومه<sup>(٦)</sup>.

ووقتها كذلك إلى ما قبل رؤية العذاب أو بعض علامات الساعة.

قال الله: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَتَابَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَانُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا قُلْ أَنْظِرُوا إِنَّا مُنْظِرُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٨].

وجمهور المفسرين على أن المقصود بقوله: ﴿يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ﴾ أي: طلوع الشمس من مغربها<sup>(٧)</sup>.

وقد بين النبي صلى الله عليه وسلم ذلك بقوله: (لا تقوم الساعة حتى تطلع الشمس من مغربها، فإذا رآها الناس آمن من عليها، فذاك حين ﴿لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَانُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ﴾

(١) جامع البيان، الطبري ٩٨/٨-٩٩.

(٢) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب الدعوات، ٥٤٧/٥، رقم ٣٥٣٧. قال الترمذي: حسن غريب.

وحسنه الألباني في صحيح الجامع، ٣٨٦/١، رقم ١٩٠٣.

(٣) قوت المغتذي على جامع الترمذي، السيوطي ٩٥٥/٢، رقم ٣٥٣٧.

(٤) فتح البيان، صديق خان ٢٨٣/٤.

(٥) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التفسير، باب (لا ينفع نفساً إيمانها)، ٥٨/٦، رقم ٤٦٣٥.

(٦) لسان العرب، ابن منظور ٣٩٤/١٥.

(٧) حاشية ابن عابدين ٦٤٧/٦.

(٨) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الوصايا، باب الوصايا، ١٠٠٥/٣، رقم ٢٥٨٧.

عَقِيْبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُوْنَ ﴿ [الزخرف: ٢٨] (٣)، قال الطبري: «هي قوله: ﴿قَالَ اسَلَمْتُ رَبِّيَ الْعَلَمِيْنَ﴾ [البقرة: ١٣١] (٤). قال ابن كثير: «وقد قرأ بعض السلف (ويعقوب) بالنصب عطفًا على بنيه، كأن إبراهيم وصى بنيه وابن ابنه يعقوب بن إسحاق وكان حاضرا ذلك»، ثم قال: «والظاهر -والله أعلم-، أن إسحاق ولد له يعقوب في حياة الخليل وسارة» (٥). وكيف ينهاهم يعقوب عن الموت وليس الموت إليهم، فيصح أن ينهوا عنه؟. والجواب: «أنهم لم ينهوا عن الموت، وإن كان اللفظ على ذلك، وإنما نهوا في الحقيقة عن ترك الإسلام؛ لثلا يصادفهم الموت عليه، فإنه لا بد منه. وتقديره: اثبتوا على الإسلام؛ لثلا يصادفكم الموت وأنتم على غيره» (٦).

بعدها يبين الله مشهد يعقوب مع أبنائه الذين حضروا موته؛ ليوصيهم وصية مودع، لكنها على سبيل الاختبار، فلما سألهم أجابوه بما أطمأنت إليه نفسه، وقرت به عينه، بأنهم على دين التوحيد وأنهم لن يشركوا به، وسيعملون بما اعتقدوه ﴿وَتَحَنَّنْ لَهُمُ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٣].

(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/٤٤٦.

(٤) جامع البيان، الطبري ٣/٩٣.

(٥) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/٤٤٦.

(٦) النكت في القرآن الكريم، المجاشعي ص ١٥٤.

ونقل ابن قدامة رحمه الله الإجماع على مشروعيتهما (١).

قال ابن عبد البر -رحمه الله: «أجمعوا على أن الوصية غير واجبة، إلا على من عليه حقوق غير بينة، وأمانة بغير إشهاد، إلا طائفة شذت فأوجبها» (٢).

يخبرنا القرآن عن ذلك المشهد المؤثر بين يعقوب عليه السلام عندما حضرته الوفاة وأبنائه، ولنا أن نتخيل هذا المشهد بصورته المعهودة: أب مضطجع ومسجى في غطاءه يكابد الموت، وأبناء حوله جلوس يرقبونه، ويتألمون لفراقه، عند ذلك يترك يعقوب الحديث عن الألم والفراق وينظر إلى ما هو أجل وأكمل.

ويسوق القرآن لنا هذا الحوار بين يعقوب وبنيه داعيا إلى تأمل الحوار.

قال الله: ﴿وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يٰبَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٣﴾ أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتَ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَاللَّهُ ءَابَاؤُنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًُا وَحِدًا وَنَحْنُ لَهُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٢-١٣٣].

والكلمة التي وصى بها إبراهيم بنيه هي التي قال الله عنها: ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي

(١) المغني، ابن قدامة ٦/١٣٧.

(٢) المجموع، النووي ١٥/٤٠١.

مثل حظ الأثنيين، وجعل للأبوين لكل واحد منهما السدس، للمرأة الثمن والرابع، وللزوج الشطر والرابع<sup>(٥)</sup>.

وأما الموضع الثالث فهو قول الله: ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلَّذِي فِي الرَّحْمَةِ نِسَاءٌ: [النساء: ١١].

والآية التي تليها مباشرة ﴿مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةِ يُوصِي بِهَا أَوْ دِينٍ﴾، ثم: ﴿مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةِ تُوصُونَ بِهَا أَوْ دِينٍ﴾، ثم: ﴿مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةِ يُوصِي بِهَا أَوْ دِينٍ﴾ [النساء: ١٢].

وهذه الآيات تبين أن الوصية أو الدين مقدمان على قسمة الميراث؛ لأن الدين حق على الميت والوصية حق له، وإذا كان الدين والوصية قد وقعا معا فيقدم الدين على الوصية<sup>(٦)</sup>.

والموضع الأخير هو قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا شَهْدَةٌ بَيْنَكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ اثْنَانِ ذُوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ أَوْ ءَخْرَانِ مِن غَيْرِكُمْ إِنْ أَنتَ صَرِيحٌ فِي الْأَرْضِ فَاصْبِرْ لِمَا مُصِيبَةُ الْمَوْتِ تَحْسِبُونَهُمَا مِنْ بَعْدِ الصَّلَاةِ فَفَقِسْمَانِ بِاللَّهِ إِنْ أَرْتَبْتُمْ لَا تَشْرِي بِهِ فَمَنَّا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَلَا نَكْتُمُ شَهْدَةَ

فجمعوا بذلك بين العلم والعمل<sup>(١)</sup>. وبالرغم من كل ما قام به إخوة يوسف من جرائم إلا إنهم تمسكوا بدينهم. والحقيقة أن هذه أعظم الوصايا وأرفعها قدرًا وأعلاها شأنًا، كيف لا وهي مختصة بأرفع الأمور وهو توحيد الله، والبعد عن الشرك.

والموضع الآخر الذي ذكر الوصية عند الموت هو قوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةَ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُنْفِينَ ﴿١٨٠﴾ فَمَنْ بَدَّلَهُ بَعْدَ مَا سَمِعَهُ فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ١٨٠-١٨١].

ومعنى الآية: فرض عليكم إذا حضرت لأحدكم مقدمات الموت وأسبابه وعلله، إن ترك ما لا أن يوصي للوالدين والأقارب، وهذا واجب على كل من يتقي الله<sup>(٢)</sup>.

قال السعدي رحمه الله: «واعلم أن جمهور المفسرين يرون أن هذه الآية منسوخة بآية الموارث»<sup>(٣)</sup>. «وليعلم أن الله لا يتعبد في وقت من الأوقات إلا بما فيه الحكمة البالغة»<sup>(٤)</sup>.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «كان المال للولد، وكانت الوصية للوالدين، فنسخ من ذلك ما أحب، فجعل للذكر

(٥) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الوصايا، باب لا وصية لوارث، ٣/ ١٠٠٨، رقم ٢٥٩٦.  
(٦) انظر: النكت والعيون، الماوردي ١/ ٦٥٩.

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٦٦.  
(٢) معالم التنزيل، البغوي ١/ ١٩٢.  
(٣) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٨٥.  
(٤) معاني القرآن، الزجاج ١/ ٢٥٠.

اللَّوِيَّاتِ إِذْ أَلَمْنَ الْأَيْمِينَ ﴿ [المائدة: ١٠٦].

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: خرج رجل من بني سهم مع تميم الداري وعدي بن بداء، فمات السهمي بأرض ليس بها مسلم، فلما قدما بتركته فقدوا جاماً<sup>(١)</sup> من فضة مخوصاً من ذهب، فأحلفهما رسول الله - صلى الله عليه وعلى آله وسلم - ثم وجدوا الجام بمكة، فقالوا: ابتعناه من تميم وعدي، فقام رجلان من أولياء السهمي، فحلفا لشهادتنا أحق من شهادتهما، وأن الجام لصاحبهم. قال: وفيهم نزلت هذه الآية: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا شَهْدَةٌ بَيْنَكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ﴾ [المائدة: ١٠٦]<sup>(٢)</sup>.

قال ابن كثير رحمه الله: «الأكثر على أن هذه الآية محكمة، وليس فيها نسخ، ومن ادعى النسخ فعليه البيان»<sup>(٣)</sup>.

ومعنى الآيات يا أيها المؤمنون: إذا قرب الموت من أحدكم، فليشهد على وصيته اثنين أمينين من المسلمين، أو آخرين من غير المسلمين عند عدم وجود غيرهما من المسلمين، تشهدونهما إن أنتم سافرتم في الأرض فحل بكم الموت، وإن ارتبتم

(١) الجام: الكأس أو الإناء. ومخوصاً أي: منقوشاً.

(٢) انظر: فتح الباري، ابن حجر ٥/ ٤١٠-٤١١.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الوصايا، ١٣/٤، رقم ٢٧٨٠.

(٤) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ٢١٥.

في شهادتهما فقفوهما من بعد الصلاة، فيقسمان بالله قسماً خالصاً لا يأخذان به عوضاً من الدنيا، ولا يحاييان به ذا قرابة منهما، ولا يكتمان به شهادة لله عندهما، وأنهما إن فعلا ذلك فهما من المذنبين<sup>(٤)</sup>.

ويمكن أن يستدل بهذه الآية الكريمة على عدة أحكام<sup>(٥)</sup>:

أولاً: أن الوصية مشروعة، وأنه ينبغي لمن حضره الموت أن يوصي.

ثانياً: تعظيم أمر الشهادة حيث أضافها تعالى إلى نفسه، وأنه يجب الاعتناء بها والقيام بها بالقسط.

ثالثاً: أنها معتبرة، ولو كان الإنسان وصل إلى مقدمات الموت وعلاماته، ما دام عقله ثابتاً.

رابعاً: أن شهادة الوصية لا بد فيها من اثنين عدلين.

خامساً: أن شهادة الكافرين في هذه الوصية ونحوها مقبولة لوجود الضرورة.

### خامساً: وقوع موت ثم حياة في الدنيا:

لما حصل إنكار من بعض البشر على قدرة الله في بعث الخلائق يوم القيامة، أعطى الله بعض الإشارات الواقعة في الدنيا؛ لتدل على صدق وقوعه في الآخرة، فأبانه الله حقيقة مشاهدة في أكثر من موطن،

(٤) التفسير الميسر، مجمع الملك فهد ص ١٢٥.

(٥) تفسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٢٤٦.

خَاوِيَةً عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُعْجِبُ هَٰذَا ٱللَّهُ  
بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ ﴿٢٥٩﴾  
[البقرة: ٢٥٩].

٥. فطلب إبراهيم من ربه أن يريه كيفية  
الإحياء، قال: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي  
ٱلْمَوْتَىٰ﴾ [البقرة: ٢٦٠].

فأحيا بعض البشر، ومن قدر على هذا في  
الدنيا، هان عليه الأمر بعد.

وقد ذكرت سورة البقرة وحدها أمثلة  
متعددة على وقوع الموت ثم الحياة في  
الدنيا، وبيانه:

١. أول القصص في ذكر الإحياء صراحة  
في الدنيا، هي عندما طلب قوم موسى  
منه، أن يريهم الله جهرة، فأخذتهم  
الصاعقة. قال الله: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْهُ  
بَعْدَ مَوْتِكُمْ لَمَّا كُنْتُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [البقرة:  
٥٦].

٢. بعدها تأتي القصة الثانية التي صرحت  
بالإحياء في الدنيا، وهي قصة بقرة  
بني إسرائيل، التي أمرهم الله أن  
يذبحوها؛ كي يكشفوا جريمة القتل.  
قال الله: ﴿فَقُلْنَا أَضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَٰلِكَ  
يُعْجِبُ ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ  
تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ٧٣]. ثم يأتي التصريح  
بأن الشهداء أحياء عند الله، وليسوا  
بأموات، فقال: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَن يُقْتَلُ  
فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلٰكِن لَّا  
تَشْعُرُونَ﴾ [البقرة: ١٥٤].

٣. ثم يصرح الله تعالى بالإحياء في  
قصة ﴿ٱلَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَهُمْ  
أَلُوף بِحَدَرِ ٱلْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ  
أَحْيَاهُمْ﴾ [البقرة: ٢٤٣].

٤. ثم قصة الذي مر على قرية ﴿وَهِيَ

## الموت والآخرة

أخبر القرآن أن لا موت في الآخرة، وإنما هو خلود في الجنة أو النار، وسنوضح هذا المعنى فيما يأتي:

## أولاً: حال الموت في الآخرة:

بعد كل هذا يبين لنا النبي صلى الله عليه وسلم نهاية الموت يوم القيامة وانتهاء أمره، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (يؤتى بالموت كهيئة كبش أملح، فينادي مناد: يا أهل الجنة، فيشرئبون وينظرون، فيقول: هل تعرفون هذا؟، فيقولون: نعم، هذا الموت، وكلهم قد رآه. ثم ينادي: يا أهل النار، فيشرئبون وينظرون، فيقول: هل تعرفون هذا؟، فيقولون: نعم، هذا الموت، وكلهم قد رآه، فيذبح. ثم يقول: يا أهل الجنة خلود فلا موت، ويا أهل النار خلود فلا موت. ثم قرأ: ﴿وَأَنْذَرَهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ﴾ (وهؤلاء في غفلة أهل الدنيا) ﴿وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [مريم: ٣٩] (١).

والمعنى من قوله عليه السلام: أن الموت سيوجد كهيئة كبش مختلط سواده ببياضه، وعندما ينادى الفريقان، سيرفعون أعناقهم

ويمدونها للاطلاع على ما سيحدث من ذبح للموت.

وقول الله: ﴿وَأَنْذَرَهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ أي: وأنذرهم يوم القيامة، ﴿إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ﴾ أي: إذ فرغ من الحكم لأهل النار بالخلود فيها، ولأهل الجنة بمقام الأبد فيها، بذبح الموت. ﴿وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ أي: وهؤلاء المشركون في غفلة عما الله فاعل بهم يوم يأتونه خارجين إليه من قبورهم، من تخليده إياهم في جهنم، وتوريثه مساكنهم من الجنة غيرهم. ﴿وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ أي: وهم لا يصدقون بالقيامة والبعث، ومجازاة الله إياهم على سيئ أعمالهم، بما أخبر أنه مجازيهم به (٢).

والحكمة من الإتيان بالموت هكذا: إشارة إلى أنهم حصل لهم الفداء له كما فدي ولد إبراهيم بالكبش. والحكمة في جعله كبشاً أملح: حتى يجمع بين صفتي أهل الجنة والنار: وهي السواد والبياض (٣).

قال ابن القيم رحمه الله: «وهذا الكبش والإضجاع والذبح ومعاناة الفريقين حقيقة لا خيال ولا تمثيل، كما أخطأ فيه بعض الناس، وقال: الموت عرض، والعرض لا

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التفسير، باب تفسير سورة مريم، ٤/١٧٦٠، رقم ٤٤٥٣.

(٢) جامع البيان، الطبري ١٨/٢٠١-٢٠٢.

(٣) فتح الباري، ابن حجر ١١/٤٢٠.

ينقطعان، قال النبي صلى الله عليه وسلم: (ينادي مناد: إن لكم أن تصحوا فلا تسقموا أبدًا، وإن لكم أن تحبوا فلا تموتوا أبدًا، وإن لكم أن تشبوا فلا تهرموا أبدًا، وإن لكم أن تنعموا فلا تبأسوا أبدًا. فذلك قوله عز وجل: ﴿وَنُودُوا أَنْ تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ٤٣] (٥).

ثانيًا: لا موت في الآخرة:

إذا دخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار، وذبح الموت بينهما، فإنه لا موت بعدئذ، فأهل الجنة خلود فلا موت، وأهل النار خلود فلا موت.

وقد ساق الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة الصورة العامة حيال هذا الخلود، ومعظم الآيات ساق الكلام عن أصحاب النار.

قال الله في شأنهم: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَافِرٍ﴾ [فاطر: ٣٦].

لذا فعذاب الدنيا إما أن تموت عنه، أو يموت عنك، أو يألفه البدن المعذب. أما عذاب الآخرة فلن تموت عنه، ولن

(٥) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب في دوام نعيم أهل الجنة، ٨/١٤٨، رقم ٧٢٥٩.

يتجسم فضلًا عن أن يذبح! وهذا لا يصح؛ فإن الله سبحانه ينشئ من الموت صورة كبش يذبح، كما ينشئ من الأعمال صورًا معاينة يثاب بها ويعاقب...، ولا حاجة إلى تكلف من قال: إن الذبح لملك الموت! فهذا كله من الاستدراك الفاسد على الله ورسوله، والتأويل الباطل الذي لا يوجه عقل ولا نقل (١).

والحقيقة أن الله تعالى لا يعجزه شيء، وليس هذا بعزيز عليه، فهو قادر سبحانه أن ينشئ جسمًا من عرض، وأمثله كثيرة في القرآن والسنة، ومنها:

جعل البقرة وآل عمران كالغمامتين (٢)، والتسييح والتحميد الذي يتعاطف حول العرش (٣)، وتصوير العمل الصالح والسيئ في القبر (٤).

وبعد ذبح الموت بهذه الصورة، لك أن تتصور ذلك المشهد المهيب، وحالة كل من الفريقين: فريق في شقاء وتعاسة دائمين لا ينقطعان، وفريق في سعادة وحبور أبدي لا

- (١) حادي الأرواح، ابن القيم ص ٤٠٢.
- (٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب فضل قراءة القرآن، ١/٥٥٣، رقم ٨٠٤.
- (٣) أخرجه أحمد في مسنده، ٣٠/٣١٢، رقم ١٨٣٦٢.
- (٤) أخرجه أحمد في مسنده، ٤/٢٨٧، رقم ١٨٥٥٧.

ولننظر هنا إلى كلمة (غليظ)، كم تعطي من دلالات مروعة لهذا المشهد المهيّب، وأغلب ورود هذه الكلمة في القرآن في شأن العذاب أو الميثاق؛ لشدة وغلظ الأمرين، وأتت الكلمة كذلك مع قتال الكفار؛ ليجد هؤلاء الغلظة والعذاب الأليم من الثلة المؤمنة المجاهدة التي عقدت المواثيق بقتالهم: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَتَلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلِيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة: ١٢٣].

ولذلك لو أن الموت يقدم إلى هذا المعذب في هذه اللحظات العصبية، كان أخف وطأة، ولكنه يراه يحوم حوله بأسبابه ودوافعه ودواعيه، دون أن يصيبه.

وبعد كل هذه الآلام والعذابات التي يتعرض لها هذا العنيد، يجد لنفسه مخرجاً من هذا البلاء، وهو أن يطلب من مالك -خازن النار- أن يشفع لهم عند الله، بأن يقضي عليهم.

قال الله: ﴿وَنَادُوا بِمَلِكِكَ لِيَقْضِ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَرْكُوتُونَ﴾ [الزخرف: ٧٧].

وإن قيل: كيف وصف أهل النار فيها بأنهم ملبسون؟، والبلس: هو الأيس من الرحمة والفرج<sup>(٢)</sup>، ثم قال بعدها: ﴿وَنَادُوا بِمَلِكِكَ لِيَقْضِ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ﴾ الدال على طلبهم

(٢) لسان العرب، ابن منظور ٦/ ٣٠.

يفنى عنك، ولن يآلفه البدن؛ لأنه يلون ولا يخفف. ﴿كَلِمًا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بِدَلَّتْهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ٥٦].

ويصور لنا القرآن ذلك المشهد النفسي الذي يعيشه الكافر في النار، حتى أنه يرى الموت يحيط به ويأتيه من كل مكان فيها، لكنه لن يذوقه.

قال الله: ﴿وَاسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿١٥﴾ مِّنْ وَرَائِهِ جَهَنَّمُ وَسُقِيَ مِنْ مَّاءٍ صَٰدِرٍ ﴿١٦﴾ يَتَجَرَّعُهُ وَلَا يَكَادُ يُسِغُهُ وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ وَمِن وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ﴾ [إبراهيم: ١٥-١٧].

والحقيقة أن المشهد هنا عجيب، «إنه مشهد الخيبة لكل جبار عنيد، مشهد الخيبة في هذه الأرض. ولكنه يقف هذا الموقف، ومن ورائه تخايل جهنم وصورته فيها، وهو يسقى من الصديد السائل من الجسم، يسقاه بعنف فيتجرعه غضباً وكرهاً، ولا يكاد يسيفه؛ لقدارته ومرارته. والتقرز والتكره باديان، نكاد نلمحهما من خلال الكلمات! ويأتيه الموت بأسبابه المحيطة به من كل مكان، ولكنه لا يموت؛ ليستكمل عذابه. ومن ورائه عذاب غليظ»<sup>(١)</sup>.

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ٤/ ٢٠٩٣.

وروى الطبري كذلك بسنده قال: ﴿وَنَادُوا بِمَنَّا لِيَقْضَ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾ قال: فخلى عنهم أربعين عاماً لا يجيبهم، ثم أجابهم: ﴿إِنَّكُمْ تَكْفُرُونَ﴾ قالوا: ﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنَّا عِندَنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ﴾ فخلى عنهم مثلي الدنيا، ثم أجابهم: ﴿قَالَ أَخْسِرُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُون﴾ قال: فوالله ما نبس القوم بعد الكلمة، إن كان إلا الزفير والشهيق<sup>(٥)</sup>.

ويكفي الإشارة إلى باقي الآيات التي نفت موت الكفار في النار، وهي قوله تعالى على لسان السحرة: ﴿إِنَّهُ مِن بَابِ رَبِّهِ يُجَرِّمُ إِذَا قِيلَ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى﴾ [طه: ٧٤].

وقوله تعالى: ﴿سَيَذَرُكَ مَنْ يَخْشَى﴾ ١٠ و﴿يَنْجَنِبُهَا الْأَشْقَى﴾ ١١ الَّذِي يَصَلُّ النَّارَ الْكُبْرَى ١٢ ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى﴾ [الأعلى: ١٠-١٣].

أما في شأن المؤمنين يوم القيامة ونفي الموت عنهم، فقد قال الله: ﴿يَدْخُلُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَلَاحَةٍ وَأَمِينٍ﴾ ٥٥ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَىٰ وَوَقَّعَتْهُمُ عَذَابَ الْجَحِيمِ ٥٦ فَضَلَّامٍ رَبِّكَ ذَٰلِكَ هُوَ الْغَوْرُ الْعَظِيمُ﴾ [الدخان: ٥٥-٥٧].

والمعنى: أنهم لا يذوقون فيها الموت البتة، سوى الموتة الأولى التي ذاقوها في الدنيا<sup>(٦)</sup>.

الفرج بالموت؟ فيجاب عنه: بأن كل منهما وقع في زمن؛ لأن أزمته يوم القيامة متعددة<sup>(١)</sup>.

وهنا أتى بالفعل الماضي ﴿وَنَادُوا﴾ لتتحقق وقوعه، وقولهم: ﴿بِمَنَّا﴾ هو خازن النار، وقد وردت أحاديث صحيحة في ذلك، منها: قول النبي صلى الله عليه وسلم: (رأيت الليلة رجلين أتياي قالوا: الذي يوحد النار مالك خازن النار، وأنا جبريل وهذا ميكائيل)<sup>(٢)</sup>.

قال صديق خان: «قرأ الجمهور: ﴿بِمَنَّا﴾ بغير الترخيم، وقرىء: (يا مال) بالترخيم، قيل لابن عباس: إن ابن مسعود قرأ: (يا مال)، فقال: ما أشغل أهل النار عن الترخيم»<sup>(٣)</sup>.

قال الطبري رحمه الله: «ونادى هؤلاء المجرمون بعد ما أدخلهم الله جهنم، فنالهم فيها من البلاء ما نالهم، مالكا خازن جهنم، ﴿بِمَنَّا لِيَقْضَ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾ قال: ليمتنا ربك، فيفرغ من إمانتنا، فذكر أن مالكا لا يجيبهم في وقت قيلهم له ذلك»<sup>(٤)</sup>.

(١) فتح الرحمن، ابن جماعة ص ٥١٥.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب بدء الخلق، باب إذا قال أحدكم: آمين، والملائكة في السماء فوافقت إحداهما الأخرى غفر له ما تقدم من ذنبه، ٣/ ١١٨٢، رقم ٣٠٦٤.

(٣) فتح البيان، صديق خان ١٢/ ٣٧٥.

(٤) جامع البيان، الطبري ٢١/ ٦٤٠.

(٥) المصدر السابق ٢١/ ٦٤٥.

(٦) معاني القرآن وإعرابه، الزجاج ٤/ ٤٢٩.

ثم كيف يوجه قول الله تعالى عن أهل النار وأهل الجنة أنهم خالدون فيها إلا ما شاء الله.

قال الله: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فِي النَّارِ لَمْ يَبْقَا فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿١٠٦﴾ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ وقال في شأن أهل الجنة: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ سَعِدُوا فِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءٌ غَيْرَ مَجْدُورٍ﴾ [هود: ١٠٨].

فهل إيراد المشيئة هنا يدل على أنهم غير مخلدين فيها؟

أجاب ابن قتيبة رحمه الله عن هذا الإشكال على ثلاثة أوجه:

الوجه الأول: أراد أنهم خالدون فيها مدة العالم، سوى ما شاء الله أن يزيدهم من الخلود على مدة العالم. ثم قال: ﴿عَطَاءٌ غَيْرَ مَجْدُورٍ﴾ [هود: ١٠٨]. أي: غير مقطوع.

الوجه الثاني: أن يكون المعنى: خالدين في الجنة وخالدتين في النار دوام السماء والأرض، إلا ما شاء ربك من تعمييرهم في الدنيا قبل ذلك.

الوجه الثالث: أن يكون المعنى: خالدين في النار ما دامت السموات والأرض إلا ما شاء ربك من إخراج المذنبين من المسلمين إلى الجنة، وخالدتين في الجنة ما دامت

وعلى هذا كيف يستثنى الموتة الأولى التي ذاقوها في الدنيا من الموت الذي لن يحدث لهم في الجنة؟ والجواب على هذا من وجوه:

الأول: هو من باب التعليق بالمحال، كأنه قيل: إن كانت الموتة الأولى يستقيم ذوقها في المستقبل، فإنهم يذوقونها<sup>(١)</sup>.

الثاني: أن (إلا) هنا: بمعنى (لكن)، والتقدير: لا يذوقون فيها الموت، لكن الموتة الأولى قد ذاقوها.

الثالث: أن الجنة حقيقتها ابتهاج النفس وفرحها بمعرفة الله تعالى وبطاعته ومحبته، وإذا كان الأمر كذلك فإن الإنسان الذي فاز بهذه السعادة فهو في الدنيا في الجنة وفي الآخرة أيضًا في الجنة، وإذا كان الأمر كذلك فقد وقعت الموتة الأولى، حين كان الإنسان في الجنة الحقيقية التي هي جنة المعرفة بالله والمحبة.

الرابع: أن من جرب شيئًا ووقف عليه صح أن يقال: إنه ذاقه، فيكون المعنى هنا: إلا الذوق الحاصل بسبب تذكر الموتة الأولى<sup>(٢)</sup>.

(١) الكشف، الزمخشري ٤/ ٢٨٣.

(٢) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ٢٧/ ٦٦٦.

السموات والأرض، إلا ما شاء ربك من  
إدخال المذنبين النار مدة من المدد، ثم  
يصيرون إلى الجنة<sup>(١)</sup>.

#### موضوعات ذات صلة:

الإهلاك، البعث، الحذر، الحياة، الخلق،  
الخوف، القبر، القتل، الملائكة، اليوم  
الآخر

(١) تأويل مشكل القرآن، ابن قتيبة ص ٥٣.